

الأسلوب الكتاني

في العصر العباسي الثاني (٢٣٢ - ٣٣٤)

وكيف تهيأ للجاحظ أن يضع أساسه ويحمل لواءه

المؤلف السباعي يوسى

٢

منذ عهد الرشيد في أواخر العصر العباسي الأول قد أخذ العمران يستبحر ،
وعم الرخاء ونشرت الرفاهية أجنحتها على ذوى اليسار فتعموا بنعيم الحياة وذاقوا
حلاوة الوجود وصار في متناول الناس التمتع بما كان للفرس من متعات وأصبح
كل إنسان لا يرضى مما هو فيه بغير الكثير ، فكان من الطبعي وقد فاضت الفارسية
على العربية إذ ذاك بكل ما هو معروف عنها من بسط وإطناب ، أن يشب
الكتاب الناشئون في آخر هذا العصر نشأة طفولة على غير ما عليه كتابه من
ترسل وإيجاز ، فهم لا بد مطنبون فيما يكتبون بجعل أثواب المعاني فضفاضة ذات
ذيول ؛ ولن يكون هذا بغير الإكثار من المفردات والجل على سبيل الترادف
والازدواج . وقد شاءت الأقدار أن تحبو هذه الفترة بطفل موهوب ينشأ فيها
نشأة الكتاب فلا تكاد تنقضى حتى يستوى في العصر الثاني واضع أساس
الأسلوب الجديد وحامل لوائه أمام الكتاب ؛ ذلكم هو أبو عثمان الجاحظ عمرو
ابن بحر بن محبوب الكتاني ؛ وإليك كلمة عنه تبين كيف هيأته البيئة الخاصة فيما
قدر له ، وكيف غير مجرى الأسلوب الكتاني في البيئة العامة حتى كان في العصر
الثاني غير ما كان عليه في سابقة من عدة وجوه .

ولد الجاحظ بالبصرة سنة ستين ومائة وهي على ما علمت عنها — فيما ذكرنا
عن ابن المقفع بمقالنا الأول (١) — عش الأدب ؛ فأدرك طبقة الأصمعي وأبى
عبيدة وأبى زيد وأخذ عنهم ما خصوا به من أدب وفكاهة وغريب ، ولازم
أبا اسحق إبراهيم بن سيار النظام المتكلم المعتزلى المعروف فتخرج عليه في علم

(١) العدد الثاني من السنة الثالثة ، صحيفة دار العلوم

الكلام، ثم خالط أعلام الكتابة والترجمة فبرع في الإنشاء، وقرأ كل ما ترجم على عهد المنصور والبرامكة والرشيد؛ وبهذا جميعه خرج أديبا فكها عالما فيلسوفا وأقام بالبصرة إقامة مغرم بالكتب لا يدع كتابا حتى يستوفيه قراءة وفهما وكثيراً ما كان يكثرى دكا كين الوراقين فيقيم فيها نظر ويتثبت؛ وإن فيما أودعه وصف الكتاب المعروف عنه لأنصح دليل على ما كان للكتب في نفسه من منزلة، وعلى تنوع ما جناه عنها من فائدة. ولقد كان محبوباً لدى ولاية البصرة وأعيانها عرباً وفرنساً، لا يزال يتحفهم بما يصنف من كتب ورسائل في شتى العلوم والفنون، ولا يزالون يتحفونه بجزيل العطايا وسنى الصلات، حتى ذاع صيته في بغداد وسرّ من رأى، فكان ينتجع إليهما الخلفاء والوزراء والعظماء، حتى استخدمه محمد بن عبد الملك الزيات في كتابة الديوان، ولما قتل ابن الزيات عاد إلى البصرة فأقام فيها كما كان عالماً مصنفًا وأديباً كاتباً، إلى أن فلج وبقي بالفالج طويلاً؛ ومع هذا لم ينقطع عما نصب نفسه له، وطالما حمل مفلوجاً إلى بغداد ليستمتع به؛ وفي إحدى هذه الحملات توفي بها سنة خمس وخمسين ومائتين.

بهذه الكفاية الممتعة في العلم والفلسفة والأدب والكتابة زاول الجاحظ تديج الكتب والرسائل، فكان أعجوبة الزمان وينبوع الاقتنان؛ إن ذكر أدب العلماء فهو آدبهم، وإن ذكر علم الأديب فهو أعلمهم، وقد استخلص مما قرأ علوماً جمّة شارك بها أهل كل علم، وآداباً متمتعة ضرب فيها بكل سهم، فكان واسع الاطلاع، لطيف البحث، طيب الفكاهة، مخترعاً لدقيق المعاني، صواعاً بليغ العبارات؛ إذا صنف ألف بين الأشتات، وإذا كتب استنزل العصم من العبارات؛ صادراً في تصنيفه وكتابته عن نفس جامعة بين المتناقضات. فكان راوية متكلماً، وفيلسوفاً مسامراً؛ وأديباً مؤرخاً، وشاعراً عالماً؛ كما كان دارساً أحوال الحيوان والنبات والجماد؛ دراسته أحوال الناس والجماعات، وهو في كل ذلك الكاتب المكثّر الذي لا يدرك له شأو ولا يشق له غبار، حتى لكأنه المعنى بقول أبي نواس:

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

ولهذا عد أحد أفذاذ العصور وإحدى حجج اللسان، قال ابن العميد يصفه

كتبه: «كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً..» وقال المسعودي يصفها

أيضاً على تشيعه وعثمانية الجاحظ : « ... وكتب الجاحظ مع انحرافه تجلو صدأ الأذهان ، وتكشف واضح البرهان ؛ لأنه نظمها أحسن نظم ، ورصفها أحسن رصف ، وكساها من كلامه أجزل لفظ ، وكان إذا تخوف ملل القارئ وسأمة السامع ، خرج من جد إلى هزل ، ومن حكمة بليغة إلى نادرة طريفة ؛ وله كتب حسان ، منها كتاب البيان والتبيين ، وهو أشرفها ؛ لأنه جمع فيه من المنشور والمنظوم وغرر الأشعار ومستحسن الأخبار وبلغ الخطب مالو اقتصر عليه مقتصر لا كتفى ، وكتاب الحيوان وكتاب الطفيليين والبخلاء ؛ وسائر كتبه في نهاية الكمال ، مالم يقصد منها إلى منصب أو إلى دفع حق ؛ ولا يعلم ممن سلف وخلف من المعتزلة أفصح منه . »

فلا جرم وهذه حال الجاحظ أن يكون إمام الكتاب في العصر العباسي الثاني ، وأن تقوم ميزة هذا العصر بما سن له - على الازدواج والإطناب ، كما قامت ميزة العصر الأول بما سن ابن المقفع - على الترسل والإيجاز ؛ وإن نظرة إلى ما خلف الجاحظ من مآثور لتريك بأجلى وضوح قدرته على المزاوجة والترادف وإتباع الشيء بمثله والقرين بقرنه في فقرات يغلب أن تكون قصيرات وتتعدد للبعنى الواحد في ابتداع مستحدث وابتكار ليس له فيما سبق مثيل ؛ وهما نحن أولاء ناقلون هنا شيئاً يسيراً مما كتب في رسالة الحسد ، مسبقاً بما قال ابن المقفع إمام العصر الأول فيه ، حتى يتم للبوازنة اتحاد الموضوع :

قال ابن المقفع في الأدب الكبير : « ليكن مما تصرف به الأذى والعذاب عن نفسك ألا تكون حسوداً ، فإن الحسد خلق لئيم ، ومن لؤمه أنه يوكل بالأدنى فالأدنى من الأقارب والأكفاء الخلفاء ؛ فليكن ما تقابل به من الحسد أن تعلم أن خير ما تكون حين تكون مع من هو خير منك ، وأن غناك أن يكون عشيرك وخليطك أفضل منك في العلم فتقبس من علمه ، وأفضل منك في الجاه فتصيب حاجتك بجاهه ، وأفضل منك في الدين فيزداد صلاحك بصلاحه ؛ وليكن ما تنظر فيه من أمر عدوك وحاسدك أن تعلم أنه لا ينفعك أن تخبر عدوك أنك له عدو فتندره نفسك وتؤذنه بحربك قبل الإعداد والفرصة فتحمله على التسليح لك وتوقد ناره عليك . »

وقال الجاحظ من رسالة الحسد : « وهب الله لك السلامة ، وأدام لك الكرامة ، ووزقك الاستقامة ، ودفع عنك الندامة . كتبت إلى أكرمك الله تسألني عن الحسد ماهو ؟ ومن أين هو ؟ وما دلائله وأفعاله ؟ وكيف تفرقت أموره وأحواله ؟ وبم يعرف ظاهره ومكتومه ؟ ولم صار في العلماء أكثر منه في الجهلاء ؟ ولم كثر في الأقرباء وقل في البعداء ؟ وكيف دب في الصالحين أكثر منه في الفاسقين ؟ وكيف خص به الجيران من جميع الاوطان ... ؟ » ثم أخذ يفصل في الإجابة عما سأل عنه حتى سلخ اثني عشرة صفحة قال في آخرها : « وما أرى السلامة الا في قطع الحاسد ، ولا السرور إلا في افتقاد وجهه ، ولا الراحة إلا في صرم مداراته ، ولا الربح إلا في ترك مصافاته ؛ فإذا فعلت ذلك فكل هنيئاً واشرب مريئاً ونم رضيعاً وعش في السرور ملياً ، ونحن نسأل الله الجليل أن يصفي كدر قلوبنا ، ويجنبنا وإياك دناءة الأخلاق ، ويرزقنا وإياك حسن الألفة والاتفاق . أحسن الله توفيقك والسلام . »

على هذا النحو من المزاجية الكثيرة الفقرات مع تقصيرها غالباً للملاءمة القصر للزواج - كان الجاحظ يكتب عن ذهن صفي وطبع رخي ، فيطلب ماشاءه الاطناب حتى في القصير من رسائله ما لم يتعمد المساواة كما في تهنئة الفتح بن خاقان يوم عيد أو الإيجاز كما في كتابه يستنجز بماطلا ، فإن القلة كما قلنا في مقالنا الأول لا تأتي الاطناب ، كما لا تأتي الكثرة الإيجاز ؛ وهذه رسالة له في ثلاثة أسطر ولكنها من الاطناب ، قال يقبح نتيجة الحرمان ويحض على الإعطاء : « أما بعد فما أقبح الاحدوثة من مستمنح حرمة ، وطالب حاجة رددته ، ومثابر حجته ، ومنبسط إليك قبضته ؛ ومقبل عليك بعنايته لويت عنه ؛ فتثبت في ذلك ولا تطع كل حلاف مهين ، هماز مشاء بنميم . » هذا ولم يكن موضوع الرسالة مهما تجافى عن الأدب والفن ولج في السيرة والعلم ، ليقف بالجاحظ دون تلك الطريقة الفذة أو يصرفه عن تناولها ، اسمع إليه يقول من تاريخ قریش : « قد علم الناس كيف كرم قریش وسخاؤها ، وكيف عقولها ودهاؤها ، وكيف رأيها وذاكؤها ، وكيف سياستها وتديرها ، وكيف إيجازها وتحسيرها ، وكيف رجاحة أحلامها إذا خف الحليم ، وحدة أذهانها إذا كل الحديد ؛ وكيف صبرها عند اللقاء ، وثباتها في

اللاء، وكيف وفاؤها إذا استحسنت الغدر، وكيف جودها إذا حب المال، وكيف ذكرها لأحاديث غد، وقلة صدورها عن جهة القصد، وكيف إقرارها بالحق وصبرها عليه، وكيف وصفها له ودعاؤها إليه، وكيف سماحة أخلاقها، وصونها لأعراضها، وكيف وصلوا قديمهم بحديثهم، وطريفيهم بتليدهم، وكيف أشبهه علائقهم سرهم، وقولهم فعلهم؛ وهل سلامة صدر أحدكم إلا على قدر بعد غديره؟ وهل غفلته إلا في صدق ظنه؟ وهل ظنه إلا كيقين غيره؟ «واسمع إليه يقول في رسم الخطبة المثلث لمن يقرأ الكتب فيما يجب أن يكون عليه إزاء المعاني والألفاظ: «ومن قرأ كتب البلغاء وتصفح دواوين الحكماء ليستفيد المعاني، فهو على سبيل الصواب؛ ومن نظر فيها ليستفيد الألفاظ فهو على سبيل الخطأ، والخسران هاهنا في وزن الريح هناك، لأن من كانت غايته انتزاع الألفاظ حمله الحرص عليها والاستئثار بها إلى أن يستعملها قبل وقتها، ويضعها في غير مكانها؛ ولذلك قال بعض الشعراء لصاحبه: أنا أشعر منك. فلما قال له: ولم ذاك؟ قال: لأنني أقول البيت وأخاه وأنت تقول البيت وابن عمه. وإنما هي رياضة وسياحة، وسماع الألفاظ ضار ونافع؛ فالوجه النافع أن تدور في مسامعه وتغيب في قلبه وتخيم في صدره، فإذا طال مكثها تناكحت ثم تلاقحت وكانت نتيجتها أكرم نتيجة وثمرتها أطيب ثمرة لأنها حينئذ تخرج غير مستترقة ولا محتلسة ولا مغتصبة ولا دالة عن فقر، إذ لم يكن القصد إلى شيء بعينه والاعتماد عليه دون غيره؛ وبين اللفظ إذا عشت في الصدر ثم باض ثم فرخ ثم نهض، وبين أن يكون اعتسافاً واعتصاباً - فرقتين، ومتى اتكل صاحب البلاغة على التهويش والوكال، وعلى السرقة والاحتيال، لم ينل طائلاً، وشق عليه النزوع، واستولى عليه الهواء، واستهلكه سوء العادة. والوجه الضار أن يحفظ ألفاظاً بأعيانها من كتاب بعينه أو من لفظ رجل، ثم يريد أن يعد لتلك الألفاظ قسمها من المعاني؛ فهذا لا يكون إلا فقيراً بخيلاً وخائفاً سروفاً، ولا يكون إلا مستكراً لألفاظه، متكلفاً لمعانيه، مضطرب التأليف، منقطع النظام، فإذا مر كلامه بنقاد الألفاظ وجهادة المعاني استخفوا عقله وبهروا علمه.»

وقد اقتدى بالجاحظ في هذا الأسلوب كتاب عصره الذين تربوا في

عصر المأمون فجمعوا إلى الآداب العربية الآداب الدخيلة تامة الإتي والاستواء بما استبحر من آداب الغرب والهند، وبما أعيد نقله وفقاً على أصله من فلسفة اليونان : كالصولي، وابن الزيات، والحسن وسليمان ابني وهب، وسعيد بن حميد، واحمد بن اسرائيل، وغيرهم ممن كتبوا للمعتصم والواثق والمتوكل، وجاوزوهم إلى المنتصر والمستعين والمعز والمهتدي والمعتمد، وهم رجال الطبقة الأولى في العصر الثاني؛ وقد أعقبتهم طبقة ثانية منها عبد الله بن سليمان بن وهب، وأبو العباس بن ثوبة، وأبو الحسن علي بن الفرات، وعلي بن الجراح، وغيرهم ممن كتبوا بعد المعتمد للمعتصم والمكتفي والمقتدر؛ وأعقب هؤلاء طبقة ثالثة منها الحسين بن عبيد الله بن سليمان بن وهب، وأبو الفضل جعفر ابن الفرات، وأبو علي بن مقلة، وغيرهم ممن كتبوا بعد المقتدر للقاهر والراضي والمتقي والمستكفي الذي انتهى على أيامه العصر الثاني بدخول بني بويه إلى بغداد. فكل هؤلاء كانوا للجاحظ في طريقته محتذين، ولأسلوبه مترسمين، فيما يكتبون من إخوانيات؛ وكذلك كانوا فيما يكتبون من رسائل مطولة ومصنفات. هذا حمزة الأصفهاني جامع ديوان أبي نواس يقول في مقدمة هذا الديوان : « سألتني أبقاك الله وأعلى قدرك وبلغك أقصى أملك وزادك من أفضل ما خولك وأحسن ما منحك ولا أعدمك جميل ما عودك - أن أصرف لك عنايتي إلى عمل مجموع من شعر أبي نواس مشتمل على كل أشعاره وجل أخباره، وقد أسعفتك أيديك الله بطلبتك، وأجبتك إلى ما تمسك. » إلى آخر ما قال على هذا النمط الذي ابتدأه بالدعاء كما كان يبتدئ الجاحظ، وعاد يكرر الدعاء في ثنايا ما يقول كما كان يكرر. وهذا ابن قتيبة يتأثر الجاحظ فيما خلف من مصنفات جاءت في الأسلوب على نحو ما كان للجاحظ من مؤلفات، وستقرأ نبذة منها آخر المقال.

وكما أوحى العصر الأول إلى كتابه أن يحمدا ويحمد لهم الإيجاز، فقد أوحى هذا العصر الثاني إلى رجاله أن يكرروا ويطنبوا، اعتقاداً منهم أن في التكرار على أيامهم قوة بلاغ للمعنى وشدة تأثير في النفس، ولقد غلوا في هذا الاعتقاد حتى أوصوا به، طالبين الحيدة عما كان شائعاً في العصور قبلهم من إيجاز؛ قال ابن قتيبة في أدب الكاتب : « ولو كتب كاتب إلى أهل بلد في الدعاء إلى الطاعة والتحذير من المعصية كتاب يزيد بن الوليد إلى مروان حين بلغه عنه تلكه في بيعته :

أما بعد فإني أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى ، فاعتمد على أيهما شئت . لم يعمل هذا الكلام في أنفسها عمله في نفس مروان ؛ ولكن الصواب أن يطيل ويكرر ، ويعيد ويبدى ، ويحذر وينذر . ونحن نقول وبهذا لم تعد استفادتهم من الفارسية منجزة إلى جانب المعاني أكثر من انحيازها إلى جانب الألفاظ كما كانت لدى أولئك الأسلاف ، وإنما صارت في ناحية اللفظ والمعنى سواء .

ولا يفوتنا قبل إنهاء المقال أن نشير إلى أن ما حدث بهذا العصر من حيدة ذوى الأمر - لجهلهم - عن تشجيع العلماء والكتاب ، ومن انصراف الناس إلى العلوم العقلية أكثر من علوم اللسان ، ثم ما كان من إهمال رجالات العرب وتهوين ما لهم من كتابات - لا يفوتنا أن نشير إلى أن ذلك جميعه - قد أصاب الأدب والأدباء فأثر في صناعة الانشاء حتى ظهر الضعف في كتابات الكتاب . ومن أجل هذا وضع ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ كتابه أدب الكاتب وكان مما كتب في مقدمته أن قال : « أما بعد فإني رأيت أكثر أهل زماننا هذا عن سبيل الأدب ناكبين ، ومن اسمه متطيرين ، ولأهله كارهين . أما الناشئ منهم فراغب عن التعليم ، والشاذى تارك للازدياد ، والمتأدب فى عنفوان الشباب ناس أو متناس ليدخل فى جملة المجدودين ويخرج عن جملة المحدودين ، فالعلماء مغمورون وبكثرة الجهل مقموعون حين هوى نجم الخير ، وكسدت سوق البر ، وبارت بضائع أهله ، وصار العلم عاراً على صاحبه ، والفضل نقصاً ، وأموال الملوك وقفاً على المنفوس ، والجاه الذى هو زكاة الشرف يباع ببيع الخلق ، وآصت المرومات فى زخارف النجد وتشديد البنيان ، ولذات النفوس فى اصطفاف المظاهر ومعاطاة الندمان ، ونبذت الصنائع ، وجهل قدر المعروف ، وماتت الخواطر ، وسقطت همم النفوس وزهد فى لسان الصدق وعقد المملوكوت ؛ فأبعد غايات كاتبنا فى كتابته أن يكون حسن الخط قويم الحروف ، وأعلى منازل أديبنا أن يقول من الشعر أبياتاً فى مدح قينة أو وصف كاس - إلى أن قال - فإني رأيت كثيراً من كتاب أهل زماننا كسائر أهله قد استطابوا الدعة ، واستوطئوا مركب العجز ، وأعفوا أنفسهم من كد النظر ، وقلوبهم من تعب التفكير ، حين نالوا الدرك بغير سبب ، وبلغوا البغية بغير آلة ،